بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

في حلقة من سلسـة «المبارزات الانتخـابية» علق أحد المرشحين لافـتة ونقش فيها:

«انتخبوا «مؤسس مديرية التحرير»..

وفي اليوم التالي وجدنا واحدًا من منافسيه يعارض اللافتة بأخرىٰ كتب فيها:

«انتخبوا الذي لم يؤسس مديرية التحرير!!».

وتشم من اللافتـة الثانيـة رائحة الاستـخفاف بما يبـاهي به الخصم.. والتقليل من شأن هذا الإنجاز الذي لم يكن في حسـابه شرفًا يدعيه .. وما خسر بفوته شيئًا يبكي عليه!

●●●

وفي معـهد «مـصرانة» الديني فـي ليبيـا زارنا العالـم المصري الكبـير «مفتشًا».

وكانت الحـصة «درسًـا في السيـرة النبوية» وكان من حـسن حظي أن أعجب المفتش بما رأىٰ وبما سمع.. ثم جاء التقرير يناشد داعيًا إدارة المعهد[1] إلىٰ إسناد «مقرر السيـرة» وعلىٰ كل المستويات إليّ.. لكنه عقب علىٰ ذلك

---

(١) كان مدير المعهد هو: د/ عبد السلام التربكي ـ وزير خارجية ليبيا الآن.

. . فكتب في ذيل التقرير:

سألته عن: «دفتر التحضير» فاعتذر بنسيانه؟!!

ومهمة «دفتر التحضير»: أن تذكر فيه ما سوف تقوله غدًا. .

وقد سمع الشيخ ما أسعده: سمع ما قلته فعلاً وعلى الطبيعة. . وإذن . . فما فاته شيء يبكي عليه بعد ما سمع ما لم يكن يتوقع!

ذكرت هذا لتلميذي الذي قال لي:

أنت «متهم» بأنك لست أكاديميًا!؟

وقصاراك أنك «متأدب» يحاول أن ينقل شعوره إلى قلوب الآخرين . . وأفكاره إلى عقولهم. . غير مرشح للنظرة الشاملة للقضية التي تعالجها. . وإنما أنت مجرد غواص. . وراء أبكار المعاني. وعرائس الخيال . . التي تحاول اقتناصها . . لتشرق من سمائك على الناس نجومًا. . أو رجومًا!!

وأنا سعيد بأنني لست «أكاديميًا»: لا أمارس نشاطي تحت مظلة الباحث الدءوب . . المسجون في قاعات البحث والنظر . . وإنما أنا مجرد «واعظ» يجوس خلال الديار مع قافلة الإصلاح. . أحاول أن آخذ بيد الحائر. . حتى يضع قدمه على الطريق اللاحب الواسع:

يذوق حلو الحياة ومرها. . ثم أصب إحساسي على الورق. . فلعل الله (تعالى) أن يهدي بي رجلاً واحدًا يكون في ميزان حسناتي أثقل من حمر النعم!

وقلت لتلميذي الجديد الناقل لما سمعه عن تلميذي القديم؟!

شِنشِنة أعرفها من أخزم!! إنه «الطبيعة» التي تؤكد لك الشبه الجامع بين مدرسة معينة لا يعجبها العجب ولا الصيام في شعبان رجب؟!

لقد تشابهوا في الطبيعة والخلق. . وإن أحدهم ليتكلم حين يتكلم. .

ويكتب حين يكتب . . على ... من الأثير . . أو مساحة من الورق بالكلام . أما نحن . . فأولئكم الشيوخ الذين يتحركون على مساحة من الأرض . . مع الأرامل والأيتام!

والمسافة واسعة واسعة بين لغة الكلام . . ولغة العرق . . والدموع . . وإذ يضن تلميذ على شيخه . . فيتأثر بلقب «أستاذ التفسير» الذي انفرد به دون شيخه . . فإن مما يسعد الشيخ لمعاني أن يكون أستاذ «ما بعد التفسير» ومِنْ هذا الذي «بعد التفسير» مجلس الصلح الذي حقن الله به الدماء . . دماء الإنسان وكان له شرف الإسهام فيه .

لكن أنى له أن يدرك ذلك . . وهو رهين المجلس . . في حجرته المغلقة : يشقق . . ويدقق . . حول آية ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ [الحجرات : ٩] ليصدع رأسك بأراء العلماء في معنى الطائفة . . والإصلاح . . وحدود التدخل .

يفعل هذا . . بل يكتب هذا بينما الدماء تنزف . . فلا يحس بها . . والآهات تشكو ظلم الإنسان إلى خالق الإنسان . ولكنه لا يسمع . . في الوقت الذي كان هناك من حرم فضيلة الأكاديمية . والذي آثر أن يفسر الآية عمليًا . . وميدانيًا . . آثر أن يقتل الحية الرقطاء بالسيف بدل أن يجرد قلمه ليسهب في وصف الحية التي سوف تلدغ المريض . . ثم تعززه بثان هو هذا الأكاديمي . . المرموق!!

مثال:

قالت الزوجة:

عندي من الأولاد : خمس . .

بنين وبنات . .

وإذن . . فلا حاجة لي من بعد إلى ولد!!

فهل عليّ إثم . . لو أنزلت الجنين من بطني والذي لم يتخلق بعد؟!

قلت لها:

كان سليمان (عليه السلام) ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠] وهو رزق داود (عليه السلام). وبعد سن السبعين وإذن فلأننا لا ندري أيهما أصلح: الموجود. أو الموعود. فلنرض بما قسم الله (تعالى). فلعل الخير معقود بناصية هذا الجنين. . الذي نحاول أن نضن عليه بالحياة. وهكذا: يحيي الله نفسًا. . وبالكلمة المخلصة المستغنية عن قائمة البحث. . وعقل الفيلسوف!!

ويحضرني الآن قصة الفتى «ملاح السفينة» التي حفلت بمجموعة من العلماء من كل التخصصات:

قال أحدهم للفتى «المراكبي»:

هل تعرف شيئًا عن الجغرافيا؟

فلما جاءه الجواب بالنفي. . سأله ثان وثالث عن مدى معرفته «بالنحو والصرف» وكان الفتى صادقًا مع نفسه حين أجاب بالنفي أيضًا. .

وأراد ربك أن تهب عاصفة عاتية على السفينة الماضية. . فترنحت تحت ضربات الرياح الهوج. . حتى لم يعد هناك أمل في النجاة. . إلا أن تداركهم (رحمة من الله). . .

وحان الوقت الذي يسألهم الفتى خبرتهم للنجاة بالسفينة. . فأعلنوا إفلاس النحو والصرف والجغرافيا في إنقاذ ما يمكن إنقاذه!!

ولكن خبرة الفتى أنقذت الموقف الذي كان سخرية من علم العالمين: الشطار في توليد المعاني. . . ثم دفنها في أكفان التكلف. . قبل أن يستمتع بها أحد!

وانتصرت إرادة الفتى . . على نظريات البـاحثين الغارقين في كيف . . وقيل . . وقالوا!!

انتصرت في مـوقف واحد . . يسامي كل ما عداه من مواقف التشقيق والتدقيق . .

موقف بدا فـيه «المراكـبي» نسرًا يضـرب بجناحيـه في جو السـماء . . متـربعًا من قلوب شـانئيه منـزلة الاحترام . . حين اسـتقـام حاله . ونال من الصيت ما لا ينال أمثاله! . . من العلماء الذين فـشلوا فيما نجح فيه ، شاب قليل العلم . . ولكنه غزير التجربة .

[الحق : بلا تزيد ولا تردد]

ولا يعني ذلك أن «الأكاديمية» داء ينبغي تلافيه :

(فأنت لا تسمي نفسك عدوًا لـلهواء . . لأنك عاجز عن الطيران . ولا تسمي نفسك عدوًا للماء . . لأنك عاجـز عن السباحة . . ولا تسمي نفسك عدوًا للسم . . لأنك لا تبتلعه إذا وجـدته . . ولا تسمي نفسك عدوًا لملايين الجنيهات التي لا تجدها . . ويستحيل أن تجدها) .

وإنما الحق هنا : التـسليم بأن كلا يـعمل على شـاكلته . . وأن التنظيـر والتبويب إذا كان له رجاله ومجاله . . فإن للأدباء مكانهم بل مكانتهم ، التي ينبـغي أن نفسح لهـا من صدورنا حـتى يؤدوا دورهم في التمكين لما يـقرره العلمـاء من مبـادئ وأخلاق . . تصـير بـالأدب منهلاً : ينبـوعًا يشـرب منه الظامئون . . ويرتوي العطاش .

وإذا كنا نؤمن بقانون التنوع ، كواحد من قوانين الحياة :

(فالكتابة السيـاسية مثلاً يناسبهـا الأسلوب المتدفق . . المرسل . . سريع الإيقاع ، لا يقيده السجع) .

وهو مما يناسب حماس الشباب، الذين يحملون خلف ضلوعهم قلوبًا فائرة ثائرة، إذا كنا نسلم بذلك. بل نستسلم له.. فلماذا نضن على الأدباء أن تكون لهم مواقع في مملكة البيان؟!

في مجال التطبيق:

قال الفتى المتحمس:

أنا لا أسمع إلا برنامجًا واحدًا في إذاعة القرآن الكريم.. هو ذلك الذي يوافينا بأحاديث كبار الشيوخ.. زمان!

وقلت له: وبقية البرامج.. أنت محتاج إليها لتنشئ في قلبك وعقلك قابلية «الاستمتاع» بما «تسمع» من حكمة الشيوخ!..

من دروس المجربين:

(كان عبد الله النديم[1] يغشي المجالس الأدبية التي ليس لها منهج):

فيسمع شعر الشاعرين.. ونوادر المتماجنين وقصائد الراوين.. فيصغي إلى كل ذلك في فهم كأنه كله آذان، ويدرك من غير وعي أن هذا بابه. وهذا فنه..

وأنه إنما خلق لهذا.. لا للنحو والصرف، فاشتاقت نفسه أن يسلك هذا المسلك. وأن يسير في هذا الطريق، وقد منح حافظة لاقطة، وقدرة على التقليد فائقة. فأخذ يحاكي بعد ما اختزن. ويغنِّي بعد ما سمع. وإلى جانب ذلك.. تعلم درسًا لم يتعلمه نوابغ معاصريه.. وهو:

(أنه نشأ في صميم الأحياء الشعبية. مع رهافة حسه. ويقظة نفسه، وفقره وبؤسه.. وقد علمه ذلك أن يحيط إحاطة واسعة بلغة الشعب

---

(١) أحمد أمين: «زعماء الإصلاح» (٢٢٢، ٢٢٣).

وأدبه . . فرسم ذلك كله في نفسه لوحات كان لها أكبر الأثر في حياته الأدبية المستقلة والنفس الحساسة الفنانة تختزن حتى حفيف أوراق الأشجار ، وهفهفة الأغصان، ودبيب النمل، وحلاوة البسمات، وأدق مجاليّ الجمال والقبح . .

ثم تعرف كيف تستخدم ذلك كله في فنها متى آن أوانه) .

والقضية في النهاية تتقاضى «العقلية المنهجية» أن تفسح مكانًا للقلوب الشجية . (فإن زفرة واحدة من قلب مظلوم . . تحرق العالم كله!) .

(وإذا كانت الأرض التي تنبت التفاح لا يشترط أن تكون أخصب من أرض تنبت «الكرات» فإن التفاحة تظل أغلى وأحلى؟!!

ويكفي أنها «تفاحة» !

والخمر إن قلت ابنة العنب تظل أغلى عن سائر الألقاب والأوصاف

ويظل الأدب يذّكر من الناس من كان ناسيًا ويشحذ من العزائم . . ما كان خابيًا :

يصور مشاعر النفس . . ويصف مشاهد الحياة، فإذا أنت أمام فوائد فرائد : تستوعبها القلوب استيعاب الأرض العطشى ماء المطر . . وإذا هو كتيبة في ميدان البيان :

يغلب بحروف البيان.. لا بسيوف القتال

ولو شئت سيرت القوافي جحافلا

وأوقرت أسماعًا.. وكان لي الفوز

مع السعدي الشيرازي:

لم يكن «السعـدي» عالمًا، ومع ذلك فقد كـان في إنسانيته عـالمًا! وقد أهلته نشأته وإحساسه المرهف على أن يكون رجلاص عالميًا:

فارس بنشأته، إنساني بمبادئه.. ومواعظه:

(وقع أسيرًا في قبضة الافرنج، وسخَّروه مع جماعة من اليهود في بناء قلعـة طرابلس، ثم قيَّض الله له أحـد حكام حلب ـ وكانت تربطه بالـشيخ سابق مـعرفة ـ فأنقـذه من أسره، ثم عاد به إلى حلب، ليزوجـه من ابنته، ولكن الزوجة ترى فـي زوجها غـير ما يرى الناس في الشـيخ.. وتكره من زوجها ما يحبه الناس فيه. ويُجلُّونه من أجله..

فـبرمت به وتنكـرت له، وسامـته مـن سوء عـشرتهـا مـا ناء صبـره باحتماله.. ففرَّ بوقاره إلى شمال إفريقيا).

ألا إن (البلبل يسـبِّح الله على وردته، وكل شـوكة مـنها لسـان ناطق بتسبيحـه، وأوراق الأشجار الخضراء، كل منها دفتر لمعرفـة الخالق (سبحانه وتعالى).

.. والناس والشجر والدواب وعـوالم الوحش، والنمل وكل ما خلق الله في صياح بذكره.. وإن من شيء إلا يسبح بحمده.. والمجموع البشري جسد واحد، وبـنو آدم بعضهم أعضاء لبعض: إذا اشـتكى منه عضو تداعى له سـائر الأعضـاء بالسهـر والحمى. وليس بآدمي من لا يتـألم لألم أخـيه الإنسان.. والعبادة الحقة لا تكون بغير نفع الناس.. والبدار إلى غوثهم في الملمات).

(إنه صوفي في جـوهره، لا في مظهره، كل ما يـعنيه: أن يكون المرء على صفـات أهل التصوف الصادقين. ولـه بعد ذلك أن يعيش كمـا يشاء،

ويستطيع المرء أن يكون صوفيًا صادقًا، وهو متربع على التخت، وعلى رأسه التاج. ويستطيع أن يكون في خلوة مع الله، وهو يزاول تجارته وزراعته).

(إن العالم عنده خير من الصوفي، هذا يسعى في خلاص الناس.. وذاك يسعى في خلاص نفسه. ونفع البشرية وسيلته إلى الله، والإخلاص معراجه إلى السماء). **وصدق العقاد حين قال:**

إنهم رواد الأمة: (محكوم عليهم أن يكونوا أطول قامة والناس أقزام، وأن يكونوا أقوى بصيرة والناس عميان. فإما أن يكون الإنسان بطلاً معتزلاً الناس، وإما .. لا بد أن يعتزل. ليكون شيئًا ممتازًا.

ما من صاحب رسالة إلا وجد نفسه مضطرًا أن يحملها ثقيلة على قلبه وعقله.. ثم انفرد بها بعيدًا.. يتهيأ لها قبل أن يلقى الناس :

فكان للرسول (ﷺ): غار حراء. إذن فليس عيبًا أن يكون الإنسان بعيدًا وحيدًا.. وأن ينكر الناس ذلك.. أو لا يعجبهم ذلك، أو يتألمون ويتقوَّلون: فالتاريخ، لا يعرف الكثير عن الذين أكلوا وشبعوا..

ولكنه يعرف الكثير عن الذين جاعوا ، وثاروا، وصاموا، وزهدوا، من أجل أن يوفروا للأغلبية الهائلة سبيل الهداية، إلى الطعام المادي والعقلي)[1].

ونفثة العقاد هذه.. تذكرنا بما قاله عنه مريدوه:

[وكنا نعرف ما الذي يحدث عادة إذا تحدث أحد أساتذة الجامعة، إلا الأستاذ الذي أكمل تعليمه الابتدائي فقط، والذي لم يدرس في الجامعة، ولا دعاه أحد لإلقاء محاضرة فيها، ولما قيل للأستاذ يومًا:

---

(١) صالون العقاد «أنيس منصور» (١٠٧).

إن الجامعة تفكر في إعطائك الدكتوراة الفخرية.. غضب «العقاد» قائلاً: ومن الذي يمتحن العقاد؟!!).

●●●

شركاء..

غير متشاكسين:

فليمض الاثنان معًا على الطريق: الأكاديمي.. المنهجي، والأديب الشاعر الحساس. أما محاولة الانفراد بالساحة. فوهم وغرور.. وخيال.

قال صاحبي:

أما سمعت من يقول معرِّضًا بك: أنا أستاذ التفسير..

فقلت له: لقد صدق:

فهو أستاذ التفسير: يشرح الآية وأنا أستاذ ما بعد التفسير: أشرح الواقع تشريحًا كاشفًا عن موطن الداء.. وصولاً إلى ما نرجوه من شفاء!.

يقول أنيس منصور: (الأكاديمية منهج قاس، جاف. اختناق منظم.. ولكن لترى أوضح. وتسمع أصفى فلا بد من «عزلة مقدسة»: عزلة الرهبان في الأديرة والعلماء في المعامل.. والزعامات في القمم عزلة حيوان اللؤلؤ: يفرز مادته الفضية وحده.. بعيدًا عن بقية الحيوانات البحرية.

وحدة دودة القز: تفرز حريرها. وحدة الجنين في بطن أمه. وحدة يوسف في البئر. وحدة يونس في بطن الحوت. وحدة النبي (ﷺ) في الغار. وحدة علماء المراصد: يعلقون عيونهم بين النجوم.

ولقد كانت سفينة نوح وسط الطوفان خلية معزولة عن الحياة. ولكن من هذه الخلية المنعزلة راحت الدنيا تضج بالحياة).

وأحيانًا تجد باحثًا كالنملة، يكدس المعلومات.. لكنه لا يمتص رحيقها

إنها مـعلومات مـكدسة لا مقـدسة!! إخـتفى فـيهـا الاجتـهاد: استنباطًا وتحليلاً..

ولكن الأديب كالنحلة وليس كالنملة:

والنحلة: تطوف مـا تطوف.. راجـعة برحـيق الزهور من كل لون.. ومذاق.. ثم تقدمها للناس شرابًا طهورًا.. فيه شفاء للناس.

●●●

فإذا الحياة:

(أعطر من زئبق الحقل. وأطهر من ثلج الجبل).

أجل:

إذا الحياة.. أجمل

وإذا البشر.. أكمل

وإذا كان الأديب.. لا يصرح.. فإنه يلمِّح

وإذا لم يوضح.. فإنه يلوِّح!

●●●

والسعي الدءوب..

[يفتح كل الدروب]

●●●

أن تكون من «تنابلة السلطان»

فهذه متعة..

ولكنها المتعة الزائفة...

إنها امتلاء.. لا يعقبه شبع

وشراب.. بلا ارتواء

وأنت مطالب بأن تتعلم ممن
حولك . .
في مملكة الطير . .
ومملكة الحيوان . .
لقد حلق العصفور عاليًا في الآفاق . .
ثم حط على الشجرة التي احتضنها
غير مبال بأشواكها .
ولقد مات فعلاً وهو ينزف . .
ولكن بعد أن صبغ أكمامها
بحمرة دمه !

●●●

ثم انظر إلى «الهر» :
إذا ألقيت إليها بقطعة اللحم . . فإنه
لا يتناولها سهلة . .
وإنما يفتعل معركة وهمية :
إنه يدور حولها . . كأنما يحاول إقناع نفسه بأنه
لا يقبل غنيمة باردة . .
وإنما يحصل عليها بعرق جبينه .
وصدق القائل :
ومن وجد مشتهاه حاضراً بين يديه . .
فقد حرم لذة السعي . . لأنه خرج عن قانون الأخذ والعطاء .

إنه فقدان الاشتهاء ثم الوجدان!

وإذن.. فلا بد من الاحتكاك الساخن بالواقع المر..

فالوردة تفقد كثيرًا من بهائها .. لو سقطت أشواكها..

لأنها عند إذن: جمال .. ولكنه مستباح

●●●

وقديمًا عرض أحد الأغنياء على فتى فقير أن يكفله!

فقاللله الفتى:

وتحييني إذا مت؟!!

●●●

وسقى الله تلك الأيام:

ذُمَّ المنازل بعد منزلة اللوى

والعيش.. بعد أولئك الأيام

●●●

في مجال التطبيق

خذ مثلاً قضية الطلاق:

بعض الباحثين يعالجها منهجيًا، مبحرًا في خضم المراجع.. عائدًا بفصوص الحكم التي ينسج منها ثوبًا سابغًا..

ولكن الأديب قد يشتغل بفكرة . ثم يفاجأ بما يصدم إحساسه، فإذا هو أمام مشهد آخر لا يستطيع الإفلات من قبضته.. فلا يملك إلا أن يمضي معه.. لينتهي معه حيث ينتهي.

فإذا كان الباحث المنهجي.. يحاول تحديد الطلاق البدعي.. والسني.. والبائن.. والرجعي.. مُفصلاً القول فيما يجوز وما لا يجوز..

فإن ذلك ـ على أهميته البالغة ـ لا يغني عن الاحتكاك بالناس والأحداث وراء العلاج الناجح والعملي.. حتى يكون الطلاق سنيا. لا بدعيًا.. ورجعيًا لا بائنًا!

وإذا كان الباحث هناك رهين محبسه.. يبحث ويقلب الأمور.. ويوازن ويختار.. فإن المصلح الاجتماعي.. هو ذلك الطبيب الذي يحمل المبضع.. في محاولة لاستئصال الداء..

وقد يخرج من مجلس الصلح مثخنًا بالجراح.. لأن كلمةالحق لم تبق له صديقًا..

ولكن متعته الكبرى أنه لا يتحدث عن المشكلة ولكنه في صميمها كاشفًا عن ساق. مشمرًا عن ذراع. في محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

وهذا ما أحاوله في هذا الكتاب الذي كان خلاصة أيام وليال.. عشتها في خضم الأحداث.. بينما الباحث المنهجي هناك في مخدعه الوثير.. لا يرى خارج بابه عوجًا.. ولا يسمع همسًا!!

●●●

ومن المستحيل أن تكون منهجيًا.. لأن أصحاب المشكلات لن يتركوك مفكرًا.. وإنما يريدونك معهم.. ليجدوا في رأيك برد السلوى..

●●●

عصر السرعة:

يضاف إلى ذلك أننا في عصر السرعة.. وهو العصر الذي لا يتحمل النفس الطويل... بينما الأعصاب مشدودة.. والخطر داهم.. ينذر بانهيار الأسرة!

يقول الدكتور طه حسين:

(نحن نعيش في عـصر ما زلنا نسمع أنه عصـر السرعة. . يقصـر فيه الوقت مهـما يكن طويلاً عمـا نحتاج إلى أن ننهض به من الأعـباء التي لم تكثر، ولم تثقل على الناس فـي عصر من العصور كمـا تكثر وتثقل وتتنوع وتزدحم في هذه الأيام.

●●●

وهذا كله يحمل على أن نؤثر الإيجاز على الأطناب، ونقـتصر إلى ما يلائم وقتنا القصير وعملنا الكثير «**جنة الشوك**».

●●●

وما أسعدك بدورك. حين تجوس خلال الديار... عضواً في مجلس من مجـالس الصلح. . لتكون ذلك الرجل الذي طوّف : فـرأى . . وعايش. . لقد ذهب. . ثم كـتب. . مستمـدًا أفكاره من هذه الينابيع المتدفقـة بمختلف الأفكار.

الأفكار التي تصبح بين أنفاسه
نَفَسًا . . وفي عروقه دمًا. .
فيحس المعاني مجسدة. .
يحس المرارة مركزة. .
والندم كثيفًا. .
والرغبة في الخلاص هائلة.

ترى العواطف والانفعالات. . على حقيقتها. . عن كثب . . لا عمن كتب! فـإذا أنت مدرك تمام الإدراك تفـسيـر الآيات الكريمة. . ممثلة في هذا الواقع الذي كان واضح الملامح في أضواء هذه الآيات. .

في الوقت الذي يصير فـيه «الأكاديمي» مقيداً: ومهـما يكن حريريًا أو حديديًا.. فإنه قيد على أي حال!!

وتبقى أوراق البـاحث النظري أوراقًا هنا وهناك.. إنهـا على أي حال عملة ورقـية لها قيمـة.. ولكن تظل التجربة الحـية هي غطاؤها الذهبي.. الذي لا قيمة لها إذا نفد.

●●●

(إن الغريق لا يريحه وهو يغرق أن يأتي له إنسان بأنبـوبة اختبار تقول له كم نسبـة الملوحة في اء البـحر.. أو ما هي أنواع السـمك.. أو ما هي أعماق البحر.. أو مدى قربه أو بعده عن الشاطئ.

إنما هو يريد:

أن ينقذه أحد.. ولو كان الذي أنقذه حوت من الحيتان).

●●●

إن الغريق محتاج إلى طبيب..

لا إلى فليسوف أريب!

●●●

يقول العقاد تصويرًا لذلك:

(عندما قرأت رواية «الجريمة والعقاب»:

كنت أمسك أنفاسي..فلمـا ذهب بطل الرواية ـ وهو طالب جامعي ـ وفي يده سكين، يريد قتل صاحبة البيت.. وعندما فـتح غرفتها.. واقترب ليقتلها كاد قلبي يقع بين ضلوعي).

إنه شيء وراء الحروف والألفاظ..

إنه الأديب الذي يتسـلل إلى مسارب نفـسك.. لينقل إليك مشـاعره

بعمق . . فإذا حريق الإنفعال يشتعل في وجدانك نارًا!!

إنك قد ترىٰ بعينك المجردة من روائع البستان ألوانًا . . لكنها ـ علىٰ روعتها ـ لن تؤثر فيك . . فإذا تناولها أديب ذواقة . .

فإنه من خلال نفسه الرقيقة . . وقلمه الرشيق . . يضيف إليك من الأحاسيس ما لم تنقله عينك الباصرة!

ويظل المتأدب يجأر بالشكوى:

لامه الناس وما أظلمهم ... وقليل من تغاضى أو عذر
قال ناس: صرعة من قدر ... وقديمًا ظلم الناس القدر
ويقول الطب بل من جِنَّة ... ورأيت العقل في الناس ندر
ويقولون: جفاء راعه ... من أب أغلَظ قلبًا من حجر
ليس يدري أحد منكم بما ... كان يعطى.. لو تأنى وانتظر
فيم تجنون على آبائكم ... ألَمُ الثُكْل شديد في الكبر
وتعقُّون بلادًا لم تزل ... بين إشفاق عليكم وحذر

[نختلف . . لنأتلف]

وهكذا كان العقلاء في كل عصر ومصر:

لقد اختلفوا:

ولكن الاختلافات

(كانت:

كاصطدام الغض بالغض في الدوحة الباسقة.

والموجة بالموجة . . في البحيرة الصافية:

وأصل الشجرة واحد.

وماء البحيرة واحد.

ولكنها ريح الصبا. هبت في الأصيل:

فأزاحت الملل. وجاءت بالأمل.

وهل الحياة إلا الحركة.. وهل في الحركة

غالبًا إلا البركة؟

خلاف: ولكنه على السطح..

وما في الأعماق.. إلا الألفة والإتفاق)[1].

أما بعد:

فليتنافس المتنافسون.. شريطة ألا يكون «كل حزب بما لديهم فرحون»: وإنما الفرح كل الفرح.. ما كان بفضل الله (تعالى):

﴿قُلْ بفضل اللّه وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ [يونس: ٥٨]

وليست المنافسة أن يسبق أحد أحدًا.. ولكنها بالدرجة الأولى. أن يمضي الفريقان في اتجاه واحد.. نحو هدف واحد.

●●●

ويبقى أن نقول لجامع الأفكار ـ جنة تجري من تحتها الأنهار..

نقول له: طالما جمعت.. ونسقت.. وشقت. والآن.. صار لديك سلاح وفير.. ولكنا نسألك: متى تحارب بهذا السلاح؟!!

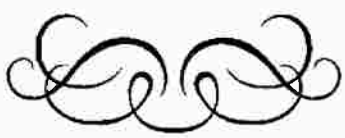

(١) ذكريات علي الطنطاوي ـ جـ ١(١٤٥).

مدخل

أراد صحـفي عربـي أن يبدو في أعين الناس هناك في ألمانـيا. أراد أن يكون «تقـدميًـا». . فقـال لزميله الصـحفي الألماني. مـا تأخرنا إلا بسـبب الإسلام!!؟

●●●

وعلى الفور: أخذ الصحفي الألماني بيـده. وذهب به إلى مستشفى في قلب «برلين» وأمام غرفة المدير أشار إلى لافتة كتب عليها:

(نحن قوم لا نأكل حتى نجوع. . وإذا أكلنا لا نشبع)

ثم قـال الألماني للصـحفي العـربي المسلم: أتعـرف من صـاحب هذه الحكمة؟ إنه نبيكم محمد. . الذي لم تعرف الحضارة إلا على يديه.

وقبل أن يتركه الصحفي الألماني ويذهب بعيدًا قال له:

يؤسفني أن أقول لك: إن جسم الإسلام عندكم. أما روحه فعندنا!!

وهذه الصفـحات الدائرة حول الطـلاق. . وأدب الطلاق وضوابطه. . شاهد صدق من شـواهد صادقة على «تقدمية» الإسـلام التي تنكر لها واحد من أهله. . وإذا كان الجـاحدون لحقائق الإسلام يجـدون في تشريع الطلاق هضمًا لحق المـرأة. فإن هذه الآيات. . خير رد عليهـم. .مؤكدة أنه لا دخل للذكـورة والأنوثة في تفضـيل جنس على جنس. وإنما هو الإنصـاف. . في أعلى مستـوياته. . ولو فرض وكان هناك تحيـز. . فهو التحـيز للمرأة. . لا للرجل. .

●●●

وعلى هؤلاء التقدميين . . أن يعلموا أنهم إنما يفرغون أنفسهم من معاني التقدم والتحضر . . حين يحاولون إفراغ الإسلام من مضمونه الحضاري الفعّال ـ أجل :

عليهم أن يعلموا هذه الحقيقة التي تطرح نفسها :

إذا أردت أن تجعل لحياتك معنى . .

فاجعل للحياة من حولك معنى ! !